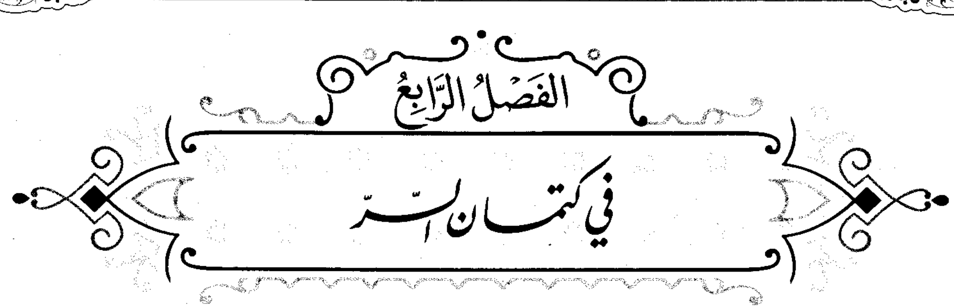


# الفصل الرابع
## في كتمان السر

واعلم : أنَّ كتمان السرِّ من أقوىٰ أسباب النجاح ، وأدوم أحوال الصلاح .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **استعِينُوا على الحاجاتِ بالكِتْمانِ ؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ** »(١) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : ( **سِرُّكَ أسيرُكَ ؛ فإذا تكلَّمتَ به . . صِرتَ أسيرَهُ** )(٢) .

وقال بعض الحكماء لابنه : ( **يا بنيَّ ؛ كن جواداً بالمال في موضع الحقِّ ، ضَنيناً بالأسرار عن جميع الخَلق ؛ فإنَّ أحمدَ جودِ المرءِ الإنفاقُ في وجه البرِّ ، والبخلُ بمكتوم السرِّ** )(٣) .

وقال بعض الأدباء : ( **مَن كتم سرَّه . . كان الخيارُ إليه ، ومَن أفشاه . . كان الخيارُ عليه** )(٤) .

وقال بعض البلغاء : ( **ما أسرَّك ما كتمتَ سرَّك !!** )(٥) .

وقال بعض الفصحاء : ( **ما لم تُغيِّبه الأضالعُ . . فهو منكشفٌ ضائعٌ** )(٦) .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ( ٦٢٢٨ ) ، والطبراني في « المعجم الكبير » ( ٢٠/ ٩٤ ) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، والمعنى : استعينوا علىٰ إنجاح حوائجكم بالكتمان ؛ اكتفاءً بإعانة الله ، فإن كل ذي نعمة محسود ، فاكتموا النعمة عن الحاسد إشفاقاً عليه وعليكم ، واستعينوا بالله على الظفر بها ، ولا منافاة مع الأمر بالتحدث بالنعمة ؛ لأنه فيما بعد الحصول ، ولا أثر للحسد حينئذ .

(٢) أورده في « لباب الآداب » ( ص ٢٣٩ ) ، و« المستطرف » ( ٢/ ٢٧ ) .

(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ٣/ ٣٣٤ ) ، و« سراج الملوك » ( ٢/ ٤٢١ ) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » ( ٤٠٩ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٦٣/ ٢٠٦ ) من قول عتبة بن أبي سفيان .

(٥) أورده في « لباب الآداب » ( ص ٢٣٩ ) .

(٦) أورده في « لباب الآداب » ( ص ٢٣٩ ) .

وقال بعض الشعراء وهو أنس بن أَسِيد[1] : [من المتقارب]

ألــم تــرَ أنَّ وُشــاةَ الــرِّجــا ... لِ لا يــدَعُــونَ أديمــاً صَحيحــا
فــلا تُفــشِ سِــرَّكَ إلاّ إليــكَ ... فــإنَّ لكــلِّ نَصيــحٍ نَصيحــا

**وكم من إظهار سرٍّ أراق دمَ صاحبه** ، ومنع من نيل مطالبه ، **ولو كتمه** . . كان من سَطواته آمناً ، وفي عواقبه سالماً ، ولنجاح حوائجه راجياً .

وقال أنوشروان : ( **مَن حصَّنَ سرَّه . . فله بتحصينه خَصلتان : الظَّفَرُ** بحاجته ، والسلامةُ من السَّطَوات )[2] .

**وإظهارُ الرجل سرَّ غيره أقبحُ من إظهار سرِّ نفسِه** ؛ لأنَّه يبوء بإحدىٰ وَصمتين : **إمّا الخيانةُ** إن كان مؤتمَناً ، **أو النَّميمةُ** إن كان مستودَعاً ، **فأمّا الضَّررُ . . فربَّما استوَيا فيه** ، أو تفاضلا ، وكلاهما مذموم ، وهو فيهما مَلومٌ .

وفي الاسترسال بإبداء السرِّ دلائلُ علىٰ ثلاثة أحوالٍ مذمومة :

**أحدها** : ضيقُ الصدر ، وقلّةُ الصبر ، حتّىٰ لم يتّسعْ لسرٍّ ، ولم يقدر علىٰ صبر .

وقد قال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا المــرءُ أفشــىٰ سِــرَّهُ بلســانِــهِ ... ولامَ عليــهِ غيــرَهُ فَهْــوَ أحمَــقُ
إذا ضاقَ صَدْرُ المرءِ عن سِرِّ نفسِهِ ... فصَدْرُ الذي يُستودَعُ السِّرَّ أضيَقُ

**والثاني** : الغفلة عن تحرُّز العقلاء ، والسهو عن يقظة الأذكياء ؛ وقد قال بعض الحكماء : ( **انفرِدْ بسرِّك ، ولا تُودِعْه حازماً فيزلَّ ، ولا جاهلاً فيخونَ**)[4] .

---

(١) روى البيتين ابن أبي الدنيا في « الصمت » ( ٤٠٧ ) لسيدنا علي رضي الله عنه ، وهما في « ديوانه » ( ص ٩٦ ) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » ( ص ٢٣٩ ) ، و« المستطرف » ( ٢/ ٢٨ ) .

(٣) البيتان للإمام الشافعي في « ديوانه » ( ص ٩٨ ) ، ورواهما في « تاريخ دمشق » ( ٦/ ١١٥ ) لأبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب ، وأورد البيت الثاني في « المحاسن والمساوىء » ( ص ٣٧٨ ) للعتبيّ .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٢٠ ) ، و« سراج الملوك » ( ٢/ ٤١٩ ) من قول ابن المعتزّ .

**والثالث** : ما ارتكبه من الغرَر ، واستعمله من الخطَر .

وقال بعض الحكماء : ( **سِرُّكَ من دمِكَ ؛ فإذا تكلَّمتَ به . . فقد أرَقْتَه** )[١] .

**واعلم** : أنَّ من الأسرار ما لا يُستغنىٰ فيه عن مطالعة صديقٍ مساهم ، واستشارة ناصحٍ مسالم ، **فليخترِ العاقلُ لسرِّه أميناً** إن لم يجدْ إلىٰ كَتمه سبيلاً ، **وليتحرَّ في اختيار مَن يأتمنه عليه** ويستودعه إياه ؛ فليس كلُّ مَن كان على الأموال أميناً كان على الأسرار مأموناً ، **والعفّةُ عن الأموال أيسرُ من العفّة عن إذاعة الأسرار** ؛ لأنَّ الإنسان قد يُذيع سرَّ نفسه بمبادرة لسانه ، وسَقَط كلامه ، ويشحُّ على اليسير من ماله ؛ حفاظاً له ، وضَنّاً به ، ولا يرىٰ ما أذاع من سرِّه كبيراً في جنب ما حفظه من يسير ماله ، مع عِظَم الضَّرر الداخل عليه .

**فمن أجل ذلك** : **كان أمناءُ الأسرار أشدَّ تعذُّراً** ، وأقلَّ وجوداً من أمناء الأموال ، **وكان حفظُ الأموال أيسرَ** من كتم الأسرار ؛ لأنَّ أَحرازَ الأموال منيعةٌ ، وأحرازَ **الأسرار بارزةٌ** ، يذيعها لسانٌ ناطقٌ ، ويشيعُها كلامٌ سابقٌ .

وقال عمر بن عبد العزيز : ( **القلوبُ أوعيةُ السرائر ، والشِّفاهُ أقفالُها ، والألسُنُ مفاتيحُها** ، **فليحفَظْ كلُّ امرىءٍ مفتاحَ سرِّه** )[٢] .

**ومن صفات أمين السرِّ** : **أن يكون ذا عقلٍ صادٍّ** ، ودِينٍ حاجز ، ونُصحٍ مبذول ، ووُدٍّ موفور ، **وكتوماً بالطبع** ؛ فإنَّ هـٰذه أمورٌ تمنع من الإذاعة ، وتوجب حفظَ الأمانة ، فمَن كانت فيه . . فهو عنقاءُ مُغرِبٌ[٣] .

وقيل في منثور الحكم : ( **قلوبُ العقلاء حصونُ الأسرار** )[٤] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » ( ٨٨٨ ) من قول أكثم بن صيفيّ ، و« عيون الأخبار » ( ١/ ٣٨ ) .
(٢) أورده في « لباب الآداب » ( ص ٢٤٠ ) ، و« المستطرف » ( ٢/ ٢٨ ) .
(٣) في المثل : ( أعزُّ من عنقاءَ مُغرِبٍ ) ، يضرب في الشيء يُسمع به ولا يُرىٰ ، وأغربَ في الطيران : أبعدَ .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٢٠ ) ، والعسكري في « الأوائل » ( ص ٢٦٦ ) من قول ابن المعتزّ .

وليحذَرْ صاحبُ السرِّ أن يودعَ سرَّه مَن يتطلَّعُ إليه ، ويؤثرُ الوقوفَ عليه ؛ فإنَّ طالبَ الوديعة خائنٌ .

وقد قيل في منثور الحكم : ( لا تُنكِحْ خاطبَ سِرِّك )[١] .

وقال صالح بن عبد القدّوس[٢] : [من الرمل]

لا تُذِعْ سرّاً إلىٰ طالبِهِ ... منكَ إنَّ الطالبَ السِّرِّ مُذِيعُ

وليحذَرْ كثرةَ المستودَعين لسرِّه ؛ فإنَّ كثرتَهم سببٌ للإذاعة ، وطريقٌ إلى الإشاعة ؛ لأمرين :

أحدهما : أنَّ اجتماعَ هٰذه الشروط في العدد الكثير مُعوِزٌ ، ولا بدَّ إذا كثُروا من أن يكون فيهم مَن أخلَّ ببعضها .

والثاني : أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يجدُ سبيلاً إلىٰ نفي الإذاعة عن نفسه ، وإحالةِ ذلك علىٰ غيره ، فلا يضافُ إليه ذنبٌ ، ولا يتوجَّهُ إليه عَتبٌ[٣] .

وقد قال بعض الحكماء : ( كلَّما كثر خُزّانُ الأسرار . . ازدادت ضَياعاً )[٤] .

وقال بعض الشعراء[٥] : [من المتقارب]

وسِرُّكَ ما كان عندَ امرِئٍ ... وسِرُّ الثَّلاثةِ غيرُ الخَفِي

وقال آخر[٦] : [من الوافر]

فلا تنطِقْ بسِرِّكَ كلُّ سرٍّ ... إذا ما جاوزَ الاثنَين فاشِ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٢٠ ) ، و« زهر الآداب » ( ٢/ ٧٧١ ) من قول ابن المعتزّ .

(٢) البيت في « ديوانه » ( ص ١١٩ ) .

(٣) عَتْبٌ ؛ أي : لومٌ وتوبيخ .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ٣/ ١٥٠ ) ، و« التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٢٠ ) من قول ابن المعتزّ .

(٥) أورد البيت في « الشعر والشعراء » ( ١/ ٥٠٢ ) ، والمرزوقي في « شرح ديوان الحماسة » ( ٢/ ١٢١١ ) للصَّلَتان العبديّ ، وأورده الجاحظ في « الحيوان » ( ٣/ ٤٧٧ ) للصلتان السعديّ .

(٦) البيت في « ديوان قيس بن الخطيم » ( ص ٢٣٥ ) ، ونسبه أبو عبيد في « غريب الحديث » ( ٢/ ٢٦٥ ) ، وابن عبد البر في « بهجة المجالس » ( ١/ ٤٦١ ) لسابق البربريّ .

ثم لو سلم من إذاعتهم . . لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم ؛ فإنَّ لمَن ظفر بسرٍّ من فرط الإدلال ، وكثرة الاستطالة . . ما إن لم يحجره عنه عقلٌ[1] ، ولم يكفَّه عنه فضلٌ . . كان أشدَّ من ذلِّ الرِّقِّ ، وخضوع التعبُّد .

ولذلك قال بعض الحكماء : ( مَن أفشىٰ سرَّه . . كثر عليه المتأمِّرون )[2] .

فإذا اختار ـ وأرجو أن يُوفَّق للاختيار ـ واضُطرَّ إلى استيداع سرِّه ، وليته كُفي الاضطرار . . وجب على المستودَع له أداءُ الأمانة فيه بالتحفُّظ والتناسي[3] ، حتّىٰ لا يخطرُ له ببال ، ولا يدورُ له في خَلَد ، ثم يرىٰ ذلك حُرمةً يرعاها ، ولا يُدِلُّ إدلالَ اللِّئام .

حُكي : أنَّ رجلاً أسرَّ إلىٰ صديقٍ لهُ حديثاً ، ثم قال له : ( أفهِمْتَ ؟ قال : بل جهِلْتُ ، قال : أحفِظْتَ ؟ قال : بل نسيتُ )[4] .

وقيل لرجلٍ : ( كيف كتمانُك للسرِّ ؟ قال : أجحدُ المُخبِرَ ، وأحلف للمُستخبِر )[5] .

وقال بعض الشعراء[6] : [من البسيط]

ولو قدَرْتُ علىٰ نِسيانِ ما اشتمَلَتْ ... مِنِّي الضُّلُوعُ على الأسرارِ والخَبَرِ
لكنتُ أوَّلَ مَن ينسىٰ سرائرَهُ ... إذْ كنتُ من نَشْرِها يوماً علىٰ خَطَرِ

وحُكي : أنَّ عبد الله بن طاهر تذاكر الناسُ في مجلسه حفظَ السرِّ ، فقال عبد الله : [من الطويل]

ومُستودِعي سِرّاً تضمَّنْتُ سَتْرَه ... فأودَعْتُهُ مِن مُستقَرِّ الحَشا قَبْرا

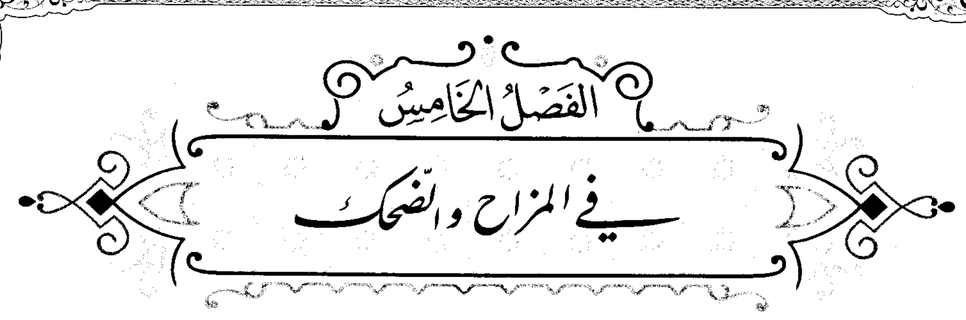
---

(١) في ( ب ، د ) : ( لم يحجزه عنه عقل ) .
(٢) أورده في « سراج الملوك » ( ٢/ ٤٢٠ ) ، و« محاضرات الأدباء » ( ١/ ٢٥٥ ) .
(٣) في ( ج ) : ( فإذا استودع سرَّه عند الذي اختاره وائتمنه . . وجب . . . ) .
(٤) أورده في « سراج الملوك » ( ٢/ ٤١٥ ) ، و« المستطرف » ( ٢/ ٢٩ ) .
(٥) رواه في « الموشىٰ » ( ص ٤٨ ) ، والقاليّ في « الأمالي » ( ٢/ ١٧٧ ) .
(٦) أورد البيتين في « عيون الأخبار » ( ١/ ٣٩ ) ، و« لباب الآداب » ( ص ٢٤١ ) .

فقال ابنه عبيد الله وهو صبيٌّ : [من الطويل]

وما السِّرُّ في قلبي كثاوٍ بحُفْرةٍ ... لأنِّي أرى المدفونَ ينتظرُ النَّشْرا
ولـٰكنَّنـي أُخفِيـهِ حتّـىٰ كـأنَّنـي ... منَ الدَّهرِ يوماً ما أحطْتُ بهِ خُبْرا[1]

(١) أورد الخبر في « صبح الأعشىٰ » ( ١/١٠٧ ) ، وتُسمىٰ هـٰذه مناضلة ومساجلة في اصطلاح الشعراء ؛ وهي أن يستقي ساقيان ، فيخرج كل واحدٍ منهما من الماء مثل ما يخرج الآخر ، فأيهما نكل . . فقد غُلب ، ثم صارت المساجلة لقصد المفاخرة .




اعلم : أنَّ المُزاح إزاحةٌ عن الحقوق ، ومَخرَجٌ إلى القطيعة والعقوق ، **يصِمُ المازحَ ، ويؤذي المُمازَحَ** .

**فوصمةُ المازح** : أنَّه يُذهب عنه الهيبةَ والبهاء ، ويُجرِّىء عليه الغوغاء والسفهاء ، **وأمّا أذية المُمازَح** . . فلأنَّه معقوقٌ بقولٍ كريهٍ ، وفعلٍ مُمِضٍّ ؛ إن أمسك عنه . . أحزن قلبَه ، وإن قابل عليه . . جانبَ أدبَه ، **فحقّ على العاقل أن يتّقيه** ، وينزِّهَ نفسَه عن وصمة مَساويه .

فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **المُزاحُ استدراجٌ مِنَ الشَّيطانِ** ، واختداعٌ مِنَ الهَوىٰ »[1] .

وقال عمر بن عبد العزيز : ( **اتَّقُوا المُزاحَ ؛ فإنَّه حَمْقةٌ تُورِثُ ضغينةً** )[2] .

وقال بعض الحكماء : ( **إنَّما المُزاحُ سِبابٌ إلا أنَّ صاحبَه يضحكُ** )[3] .

وقيل : ( **إنَّما سُمِّي المُزاح مُزاحاً ؛ لأنَّه يُزيحُ عن الحقِّ** )[4] .

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ : ( **المُزاحُ من سُخْفٍ أو بَطَرٍ** )[5] .

وقيل في منثور الحكم : ( **المُزاحُ يأكل الهيبةَ كما تأكلُ النارُ الحطَبَ** )[6] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » ( ٤٠١ ) من قول الحسن بن حيّ .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » ( ٤/ ٨٨ ) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٤٩ ) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » ( ٣٩٨ ) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأورده العسكري في « جمهرة الأمثال » ( ٢/ ١٩٠ ) .

(٥) أورده في « بهجة المجالس » ( ١/ ٥٧٠ ) لإبراهيم ، وفي « محاضرات الأدباء » ( ١/ ٥٨٣ ) لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ ، ومن سخف : قلة عقل ، أو بطر : كبر يستهزىء بصاحبه .

(٦) رواه في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ( ١/ ٦٣٣ ) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٤٩ ) من قول عبد الله بن المعتزّ .

وقال بعض الأدباء : ( مَن كثر مُزاحُه .. زالت هيبتُه ، ومَن كثر خلافُه .. طابت غَيبتُه )[1] .

وقال بعض البلغاء : ( مَن قلَّ عقلُه .. كثر هَزْلُه ) .

وذكر خالد بن صفوان المُزاح ، فقال : ( يصكُّ أحدُكم صاحبَه بأشدَّ من الجَنْدَل ، ويُنشِقُه أحرَفَ من الخَرْدَل ، ويُفرِغ عليه أحرَّ من المِرْجَل ، ثم يقول : إنَّما كنت أمازحُك )[2] .

وقال بعض الحكماء : ( خيرُ المُزاح لا يُنالُ ، وشرُّه لا يُقالُ )[3] .

فنظمه السابوري في قصيدته الجامعة للآداب ، وزاد فقال : [من الرجز]

شَــرُّ مُــزاحِ المــرءِ لا يُقــالُ ... وخيــرُهُ يــا صــاحِ لا يُنــالُ
وقــد يقــالُ كثــرةُ المُــزاحِ ... مِنَ الفتىٰ تدعُو إلى التَّلاحِي
إنَّ المُــزاحَ بــدؤُهُ حَــلاوَهْ ... لٰكنَّمــا آخــرُهُ عَــداوَهْ
يحقِــدُ منه الــرَّجــلُ الشَّريــفُ ... ويجتــري بسُخْفِــهِ السَّخيــفُ

وقال أبو نواس[4] : [من مجزوء الرمل]

خَــلِّ جَنْبَيــكَ لــرامِ ... وامــضِ عنــهُ بسَــلامِ
مُــتْ بــداءِ الصَّمــتِ خيــرٌ ... لــكَ مــن داءِ الكَــلامِ
إنَّمــا السّالــمُ مَــن أَلْـ ... ـجَــمَ فــاهُ بلِجــامِ
ربَّمــا استُفتِــحَ بــالمَــزْ ... حِ مَغــاليــقُ الحِمــامِ
والمَنــايــا آكــلاتٌ ... شــاربــاتٌ لــلأنــامِ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ( ٤٦٤٠ ) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ( ١/ ٦٣٢ ) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه بنحوه .
(٢) أورده في « البصائر والذخائر » ( ٥/ ٣١ ) ، و« بهجة المجالس » ( ١/ ٥٧٠ ) .
(٣) أورده في « نهاية الأرب » ( ٤/ ٨٨ ) ، و« ربيع الأبرار » ( ٥/ ١٦٩ ) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » ( ص ٦٢٠ ) .

واعلم : أنه قلَّما يعرىٰ من المُزاح مَن كان سهلاً ؛ فالعاقل يتوخّىٰ بمزحه إحدىٰ حالتين ، لا ثالثةَ لهما :

إحداهما : إيناسُ المصاحِبين ، والتودُّد إلى المخالِطين ، وهـٰذا يكون بما أُنِس من جميل القول ، وبُسِط من مستحسَن الفعل ؛ كما قال سعيد بن العاص لابنه : ( اقتصِدْ في مُزاحك ؛ فإنَّ الإفراطَ فيه يُذهِب البهاء ، ويُجرِّىء عليك السفهاءَ، وإنَّ التقصيرَ فيه يقصي عنك المؤانِسين، ويُوحش منك المصاحِبين)[١] .

والحالة الثانية : أن ينفي بالمُزاح ما طرأ عليه من سأَمٍ ، أو حدث به من هَمٍّ ؛ فقد قيل : ( لا بدَّ للمصدور أن ينفُثَ )[٢] .

وأُنشدتُ لأبي الفتح البُستيِّ[٣] : [من الطويل]

أَفِدْ طَبْعَكَ المكدُودَ بالجِدِّ راحةً يجِـمَّ وعلِّلْـهُ بشـيءٍ مـنَ المَـزْحِ
ولـٰكـنْ إذا أعطيتَـهُ المَـزْحَ فلْيَكُـنْ بمقدارِ ما تُعطِي الطعامَ منَ المِلْحِ

وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يمزحُ علىٰ هـٰذا الوجه .

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إنِّي لأمزَحُ ، ولا أقولُ إلاّ حَقّاً »[٤] .

فمن مُزاحه عليه السلام : ما رُوي أنَّ عجوزاً من الأنصار أتته ، فقالت : يا رسولَ الله ؛ ادعُ اللهَ لي بالمغفرة ، فقال لها : « أما علمتِ أنَّ الجنّةَ لا يدخلُها العُجُزُ ؟ » فصرخَت ، فتبسَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لها : « أوَ

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » ( ١/ ٥٨٤ ) ، و« نهاية الأرب » ( ٤/ ٩٠ ) .
(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبير » ( ٧/ ٢٤٦ ) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ( ٢٦٥٧٩ ) من قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود رضي الله عنهم ، والمصدور : مَنْ يشتكي صدره ، والنفث : هو النفخ ، والمصدور يخرج نفساً من فيه يستريح به ، وهـٰذا مثلٌ يضرب ، والمراد به : أن المصاب يبث الشكوىٰ .
(٣) البيتان في « ديوانه » ( ص ١٠٩ ) .
(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » ( ٢٦٥ ) ، والترمذي ( ١٩٩٠ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ما قرأتِ قولَ الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ؟ »[1] .

وأتته أخرىٰ في حاجةٍ لزوجها ، فقال لها : « ومَن زوجُكِ ؟ » فقالت : فلانٌ ، فقال لها : « الذي في عَينه بياضٌ ؟ » فقالت : لا ، قال : « بلىٰ » فانصرفَت عَجْلىٰ إلىٰ زوجها ، وجعلت تتأمَّلُ عينَه ، فقال لها : ما شأنُكِ ؟ فقالت : أخبرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ في عينكَ بياضاً ، فقال لها : **أَمَا ترَيْنَ بياضَ عينيَّ أكثرَ من سوادهما ؟**[2] .

وأتىٰ رجلٌ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : إنِّي احتلَمْتُ علىٰ أمِّي ، فقال : ( **أقيمُوه في الشَّمس ، واضربُوا ظلَّه الحَدَّ** )[3] .

وسُئل الشَّعْبيُّ عن أكل لحم الشيطان ، فقال : ( **نحن نرضىٰ منه بالكَفاف** )[4] .

وقيل له : ( ما اسمُ امرأة إبليسَ ؟ فقال : **ذاك نكاحٌ ما شهِدْناه** )[5] .

وقال رجل لغلام : ( **بكم تعملُ معي ؟** قال : **بطعامي** ، فقال له : **أحسِنْ قليلاً** ، فقال : **فأصوم الاثنين والخميس** )[6] .

وحُكي عن صالح بن حسّان ـ وكان محدِّثاً ـ : أنه قال يوماً لأصحابه مازحاً : أفقهُ الناسِ وضّاحُ اليمنِ في قوله : [من الطويل]

إذا قلتُ هاتي نَوِّليني تبرَّمَتْ وقالت مَعاذَ اللهِ من فعلِ ما حَرُمْ

---

(١) رواه الترمذي في « الشمائل المحمدية » ( ٢٣٠ ) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « البعث والنشور » ( ٣٧٩ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) أورده الخَركوشيُّ في « شرف المصطفىٰ » ( ٥/ ١٢٨ ) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » ( ١/ ٥٨٦ ) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » ( ١/ ٣١٦ ) ، و« التذكرة الحمدونية » ( ٩/ ٣٧٦ ) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » ( ١/ ٣١٦ ) ، و« العقد الفريد » ( ٦/ ١٥٢ ) .

(٦) أورده في « محاضرات الأدباء » ( ٢/ ٢٠٧ ) ، و« نثر الدرّ » ( ٣/ ٢٨٣ ) .

فما نَوَّلَتْ حتّىٰ تضرَّعْتُ عندَها     وأنبأتُها ما رخَّصَ اللهُ في اللَّمَمْ[1]

**فأمّا الخروجُ إلىٰ حدِّ الخلاعة . . فهُجْنةٌ ومَذَمّةٌ** ؛ كالذي حُكي عن أبي معاوية الضَّرير ـ وكان محدِّثاً ـ أنَّه خرج يوماً إلىٰ أصحابه وهو يقول : [من مجزوء الوافر]

فــإذا المِعْــدةُ جــاشَــتْ     فــارْمِهــا بــالمَنجَنيــقِ
بثــلاثٍ مِــن نَبيــذٍ     ليــسَ بــالحُلْــوِ الــرَّقِيــقِ[2]

**أما ترىٰ كيف طرَّقَ بخلاعته التُّهَمةَ علىٰ نفسه** بهٰذا المزحِ فيما لعلَّه بريء منه ، وبعيد عنه ؟!

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه **مسترسِلاً في مُزاحه** ، فحكى ابن قتيبة في « المعارف » : ( أنَّ مروان ربَّما **كان يستخلفُه على المدينة** ، فيركب حماراً قد شدَّ عليه برذَعةً ، فيسير فيلقى الرجل ، فيقول : **الطريقَ ، قد جاء الأميرُ** .

وربَّما أتى الصبيانَ **وهم يلعبون لعبةَ الغرابِ** ، فلا يشعرون **حتّىٰ يُلقيَ نفسَه بينهم** ، ويضربَ برجليه ، فيفزعُ الصبيانُ ويفرُّون )[3] .

وهٰذا خروج عن القدر المستسمَح به ، ويوشك أن يكون لهٰذا الفعل منه تأويل سائغ[4] .

**وقد كان صهيب بن سنان مَزّاحاً** ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **أتأكلُ تَمْراً وبكَ رَمَدٌ ؟** » فقال : يا رسولَ اللهِ ؛ **أنا أمضغُ على الناحية الأخرىٰ**[5] .

**وإنَّما استجاز صهيبٌ** أن يُعرِّضَ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمزح

---

(١) أورده في « المعارف » ( ص ٤٨٦ ) ، و« ثمار القلوب » ( ١/ ٢٠٧ ) ، والبيتان في « ديوان وضّاح اليمن » ( ص ٨٧ ) .
(٢) أورده في « المعارف » ( ص ٥١٠ ) ، ورواه في « أخبار القضاة » ( ٣/ ١٧٣ ) .
(٣) المعارف ( ص ٢٧٨ ) .
(٤) كدفع العجب وخطرات النفس ، ولتهذيب نفسه .
(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٤/ ٤١١ ) ، والطبراني في « المعجم الكبير » ( ٨/ ٣٥ ) .

في جوابه ؛ لأنَّ استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمَّن المزحَ ، فأجابه عن استخباره بما وافقه من المزح ؛ مساعدةً لغرضه ، وتقرُّباً من قلبه ، وإلا . . فليس لأحدٍ أن يجعل جوابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحاً ؛ لأنَّ المزحَ هزلٌ ، ومَن جعل جوابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المبيِّنِ عن الله تعالىٰ أحكامَه ، والمؤدِّي إلىٰ خلقه أوامرَه هزلاً ومزحاً . . فقد عصى اللهَ ورسولَه ، وصهيب كان أطوعَ لله تعالىٰ ولرسوله صلى الله عليه وسلم من أن يكون بهـٰذه المنزلة منه ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سابقُ العَرَبِ ، وصهيبٌ سابقُ الرُّومِ ، وسلمانُ سابقُ فارسَ ، وبلالٌ سابقُ الحَبَشِ »[1] .

ومن مستملح المزح ، ومُستسمَح الدُّعابة : ما حكى الزبير بن بكار ، عن الكَثيريِّ : أنَّ القُشَيريَّ وقف عليه شيخٌ من الأعراب ، فقال : ( يا أعرابيُّ ؛ ممَّن أنت ؟ قال : من بني عُقَيل ، فقال : من أيِّ عُقَيل ؟ قال : من بني خفاجة ، فقال القُشَيريُّ : [من مشطور الرجز]

رأيـتُ شيخـاً مِـن بنـي خَفـاجَـهْ

فقال الأعرابيُّ : ما شأنُه ؟ فقال :

لـه إذا جَـنَّ الظَّـلامُ حـاجَـهْ

فقال الأعرابيُّ : ما هي ؟ قال :

كحـاجـةِ الـدِّيـكِ إلـى الـدَّجـاجَـهْ

فاستعبر الأعرابيُّ ضاحكاً ، وقال : قاتلَكَ اللهُ ، ما أعرفَكَ بسرائر القوم !! ) .

فانظر كيف بلغ هـٰذا المزحُ غايتَه ، ولسانُه نَزِهٌ ، وعِرضُه مصونٌ ، وهـٰذا غايةُ

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٣/ ٢٨٥ ) ، والطبراني في « المعجم الكبير » ( ٨/ ٢٩ ) ، ولم يكن سيدنا صهيب رومياً ، وإنما نُسب إليهم ؛ لأنهم سبوه وباعوه ، وقيل : لأنه كان أحمر اللون ، رضي الله عنه .

ما يتسامح به الفضلاء من الخلاعة وإن كان مستكرَهَ الفَحوىٰ ، والنزاهةُ عن مثله أَولىٰ .

وليحذرْ أن يسترسلَ في ممازحة عدوٍّ ؛ فيجعلَ له طريقاً إلىٰ إعلان المساوىء وهو مُجِدٌّ ، ويفسحَ له في التشفِّي مزحاً وهو مُحِقٌّ .

وقد قال بعض الحكماء : ( إذا مازحتَ عدوَّك . . ظهرت عيوبُك ) .

* * *

وأمّا الضَّحِكُ : فإنَّ اعتياده شاغلٌ عن النظر في الأمور المُهِمّة ، مذهلٌ عن الفكر في النوائب المُلِمّة ، وليس لمَن أكثر منه هيبةٌ ووقارٌ ، ولا لمَن وُسِم به خطرٌ ومقدارٌ .

روىٰ أبو إدريسَ الخَوْلانيُّ ، عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إيّاكَ وكثرةَ الضَّحِكِ ؛ فإنَّه يُميتُ القَلْبَ ، ويذهَبُ بنُورِ الوَجْهِ »[1] .

وقد حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ : ( أنَّ الصغيرةَ الضَّحِكُ )[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ( مَن كثر ضحكُه . . قلَّت هيبتُه )[3] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : ( إذا ضحك العالم ضحكةً . . مَجَّ من العلم مَجّةً )[4] .

وقيل في منثور الحكم : ( ضَحِكُ المؤمنِ غفلةٌ من قلبه )[5] .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » ( ٣٦١ ) ، والطبراني في « المعجم الكبير » ( ٢/ ١٥٧ ) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » ( ٩/ ١٥/ ٣١٥ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٧٠٢٤ ) .

(٣) رواه الشهاب في « مسنده » ( ٣٧٤ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٤٦٤٠ ) .

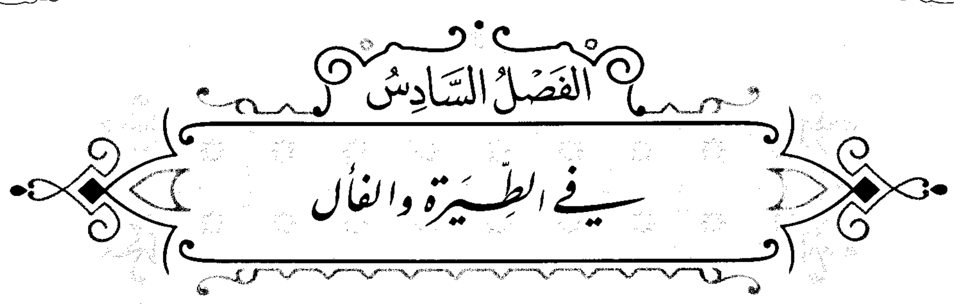
(٤) رواه الدارميّ في « مسنده » ( ٦٠٢ ) بنحوه ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » ( ٩٤٠ ) ، ومج من العلم : يقال : مج الشراب من فيه إذا رماه .

(٥) رواه الإمام أحمد في « الزهد » ( ١٥٩٣ ) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ( ٢٧٢٠٩ ) من قول الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ .

**والقول في الضَّحِك كالقول في المُزاح ؛ إن تجافاه الإنسان.. نفَّر عنه ، وأوحشَ منه ، وإن ألفه.. كانت حاله ما وصفناه ، فليكن عند الإيناس بدل الضحك تبسُّماً وبِشراً .**

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ( **التَّبسُّمُ دُعابةٌ** ) .

**وهٰذا أبلغُ في الإيناس من الضحك** الذي قد يكون استهزاءً أو تعجّباً ، وليس يُنكَر منه المرّةُ النادرة لطارىء استغفل النفسَ عن دفعه ؛ هٰذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو أملكُ الخلق لنفسه **قد تبسَّم حتّىٰ بدَت نواجذُه** ، وإنَّما كان ذلك منه على الوجه الذي ذكرناه .




**اعلم** : أنه ليس شيءٌ أضرَّ بالرأي ، ولا أفسدَ للتدبير من اعتقاد الطِّيَرة ، ومَن ظنَّ أنَّ خُوارَ بقرةٍ أو نعيبَ غرابٍ يردُّ قضاءً ، أو يدفع مقدوراً . . فقد جهل .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا عَدْوىٰ ، ولا هامةَ ، ولا طِيَرَةَ ، ولا صَفرَ** »[1] .

**فالعدوىٰ** : ما يظنُّه الناس من تعدِّي العِلَل والأمراض ، فأخبر أنَّه لا يُعدِي ، فقيل : يا رسولَ الله ؛ إنَّا نرى النُّقْبَةَ من الجَرَب في مِشفَر البعير ، فيُعدِي إلىٰ جميعه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **فما أعدى الأوَّلَ ؟** »[2] .

وأمّا **الهامةُ** : فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده من أنَّ القتيلَ إذا طُلَّ دمُه ، فلم يُدرَك بثأره . . صاحت هامتُه في القبر : اسقُوني .

قال الزِّبْرِقان بن بدر[3] : [من البسيط]

يا عمرُو إلاّ تَدَعْ شَتْمي ومَنقَصَتي ... أضرِبْكَ حيثُ تقولُ الهامةُ اسقُوني

وقال إبراهيم بن هَرْمة[4] : [من الطويل]

وكيفَ وقد صارُوا عِظاماً وأقبُراً ... يصيحُ صَداها بالعَشِيِّ وهَامُها

---

(١) رواه البخاري ( ٥٧٥٧ ) ، ومسلم ( ٢٢٢٠/١٠٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، **والطيرة** : هي التشاؤم بالشيء ، وهي من اعتقاد أهل الجاهلية ؛ كان إذا أراد الواحد منهم حاجة أو سفراً ، فإن رأى الطير طار يميناً . . تيمَّن به ، وإن طار شمالاً . . تشاءم به ورجع ، فنهى الشرع عن ذلك .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » ( ٦١١٩ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٤٧/ ٢٩٤ ) .

(٣) أورد البيت في « المفضَّليّات » ( ص ١٦٠ ) ، و« الحماسة البصرية » ( ١/ ٢١٨ ) لذي الإصبع العَدْوانيّ .

(٤) أورد البيت الثاني في « الحماسة البصرية » ( ٢/ ٧١٨ ) لمرّة بن مالك العُذْريّ .

تفانَوا ولم يبقَوا وكلُّ قبيلةٍ      سريعٌ إلىٰ وِرْدِ الفَناءِ كِرامُها

وأمّا **الصَّفَر** : فهو كالحيّة تكون في الجوف ، تصيب الماشيةَ والناس ، وهو أعدىٰ عندهم من **الجَرَب** ، وفيه يقول الشاعر[1] : [من البسيط]

لا يُمسِكُ الساقَ من أَيْنٍ ولا وَصَبٍ      ولا يعَضُّ علىٰ شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إذا ظَنَنْتُمْ . . فلا تُحَقِّقُوا ، وإذا حسَدْتُمْ . . فلا تَبْغُوا ، وإذا تطيَّرْتُمْ . . فامضُوا ، وعلى الله فتوكَّلُوا** »[2] .

وقال الشاعر[3] : [من الخفيف]

طِيْرةُ الناسِ لا تردُّ قَضاءً      فاعذِرِ الدَّهرَ لا تَشُبْهُ بلَوْمِ
أيُّ يومٍ تخصُّهُ بسُعُودٍ      والمنايا ينزِلْنَ في كلِّ يَومِ
ليس يومٌ إلا وفيه سُعُودٌ      ونُحُوسٌ تجري لقومٍ وقَومِ

وقد كانت الفرس أكثرَ الناس طيَرةً ، وكانت العرب إذا أرادت سفراً . . نفَّرت أوَّلَ طائر تلقاه ؛ **فإن طار يَمْنَةً** . . سارت وتيمَّنت ، **وإن طار شأمةً** . . رجعت وتشاءمت ، فنهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وقال : « **أَقِرُّوا الطَّيرَ علىٰ وُكُناتِها** »[4] .

وحكىٰ عكرمةُ قال : كنّا جلوساً عند ابن عباسٍ رضي الله عنهما ، **فمرَّ طائرٌ**

---

(١) البيت لأعشىٰ باهلة في « ديوانه » ( ص ٢٦٨ ) ، وانظر « المكاثرة » ( ص ١٥ ) . والأين : الإعياء ، والوصب : الوجع والمرض ، والشرسوف : طرف الضلع مما يلي البطن .
(٢) رواه الخطيب البغدادي في « المتفق والمفترق » ( ٨٩٨ ) ، وإذا تطيرتم . . فامضوا ؛ أي : إذا خرجتم لنحو سفرٍ أو عزمتم علىٰ فعل شيءٍ فتشاءمتم به لرؤية أو سماع ما فيه كراهة . . فلا ترجعوا .
(٣) أورد الأبيات في « تفسير القرطبي » ( ١٣/ ٢١٤ ) .
(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » ( ٦١٢٦ ) ، وأبو داوود ( ٢٨٣٥ ) عن أم كُرْز رضي الله عنها ، ووكنات الطير : أعشاشها .

يصيحُ ، فقال رجلٌ من القوم : خيرٌ ، فقال ابن عباس : ( لا خيرٌ ، ولا شرٌّ )[1] .

وقال لبيد[2] : [من الطويل]

لعَمْرُكَ ما تدري الضَّوارِبُ بالحَصىٰ ولا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانِعُ

واعلم : أنَّه قلَّما يخلو من الطِّيَرة أحد ، لا سيَّما مَن عارضته المقاديرُ في إرادته ، وصدَّه القضاءُ عن طِلْبته ، فهو يرجو واليأسُ عليه أغلبُ ، ويأمُلُ والخوفُ إليه أقربُ ، فإذا عاقه القضاء ، وخانه الرجاء .. جعل الطِّيَرةَ عُذرَ خيبته ، وغفل عن قضاء الله تعالىٰ ومشيئته ؛ فهو إذا تطيَّرَ من بعدُ .. أحجمَ عن الإقدام ، ويئس من الظَّفَر ، وظنَّ أنَّ القياس فيه مُطَّردٌ ، وأنَّ العِبْرةَ فيه مستمرّةٌ ، ثم يصير ذلك له عادةً ، فلا ينجح له سعيٌ ، ولا يثمرُ له قصدٌ .

وأمّا مَن ساعدته المقادير ، ووافقه القضاء .. فهو قليلُ الطِّيَرة ؛ لإقدامه ثقةً بإقباله ، وتعويلاً علىٰ سعادته ، فلا يصدُّه خوف ، ولا يكفُّه خَوَر ، فلا يؤوبُ إلا ظافراً ، ولا يعودُ إلا مُنجِحاً ؛ لأنَّ الغُنْمَ بالإقدام ، والخيبةَ مع الإحجام ، فصارت الطِّيَرة من سمات الإدبار ، واطّراحُها من أمارات الإقبال .

فينبغي لمَن مُنِي بها وبُلِي : أن يصرفَ عن نفسه وساوسَ النَّوكىٰ ، ودواعيَ الخيبة ، وذرائع الحرمان ، ولا يجعلَ للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه ، ومعارضة خالقه ، ويعلمَ أنَّ قضاءَ الله تعالىٰ غالبٌ ، وأنَّ رزقَ العبد له طالبٌ ، وأنَّ الحركة سببٌ ، فلا يثنيه عنها ما لا يضرُّ مخلوقاً ، ولا يدفع مقدوراً ، وليمضِ في عزائمه واثقاً بالله تعالىٰ إن أُعطِي ، وراضياً به إن مُنِع .

فقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الإنسانِ ثلاثةٌ : الطِّيَرةُ ، والظنُّ ، والحسَدُ ؛ فمَخرَجُه من الطِّيَرة : ألاّ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » ( ١/١٤٦ ) ، و« المجالسة وجواهر العلم » ( ٩٣٧ ) .
(٢) البيت في « ديوانه » ( ص ١٧٢ ) .

يرجعَ ، ومَخرَجُه من الظنِّ : ألاّ يحقّقَ ، ومَخرَجُه منَ الحَسَدِ : ألاّ يبغِيَ »[1] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **كفّارُة الطِّيَرةِ : التَّوكُّلُ على الله تعالىٰ** » .

وقيل في منثور الحكم : ( **الخِيَرةُ في ترك الطِّيَرة** )[2] .

**وليقل إن عارضه في الطِّيَرة ريبٌ** ، أو خامره فيها وهمٌ : ما رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن تطيَّرَ** . . فليقُلْ : **اللَّهُمَّ ؛ لا يأتي بالخَيراتِ إلاّ أنتَ** ، ولا يدفعُ السَّيِّئاتِ إلاّ أنتَ ، **ولا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله** »[3] .

وقد رُوي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ؛ صلى الله عليك **إنّا نزلنا داراً فكثر فيها عددُنا** ، وكثرت فيها أموالُنا ، **ثم تحوَّلنا عنها إلىٰ أخرىٰ** ، فقلَّت فيها أموالُنا ، وقلَّ فيها عددُنا ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **ذَرُوها ؛ فهي ذَميمةٌ** »[4] .

وليس هـٰذا القولُ منه صلى الله عليه وسلم علىٰ وجه الطِّيَرةِ ؛ **ولـٰكن علىٰ طريق التبرُّك بما فارق** ، وتركِ ما استوحش منه إلىٰ ما أَنِس به .

**فأمّا الفأل** : ففيه تقويةٌ للعزم ، وباعثٌ على الجِدّ ، ومعونةٌ على الظَّفَر ؛ **فقد تفاءل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه** ، وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سمعَ كلمةً فأعجبته ، فقال : « **أخَذْنا فألَكَ مِن فِيكَ** »[5] .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ( ١١٣٠ ) .

(٢) أورده في « نثر الدرّ » ( ١/ ٢٩٤ ) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داوود ( ٣٩١٩ ) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ( ٢٦٩٢٠ ) عن سيدنا عروة بن عامر رضي الله عنه .

(٤) رواه أبو داوود ( ٣٩٢٤ ) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولم يكن ذلك علىٰ وجه الطيرة ، وإنما كانوا في دارهم على استثقال واستيحاش ، فأمرهم بالانتقال عنها ؛ ليزول عنهم ما يجدون من الكراهة ، لأنه سبب في ذلك .

(٥) رواه أبو داوود ( ٣٩١٧ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ١١٢٦ ) .

فينبغي لمَن تفاءل : أن يتأوَّلَ الفألَ بأحسن تأويلاته ، ولا يجعلَ لسوء الظنِّ سبيلاً علىٰ نفسه ؛ فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنطِقِ »[1] .

حُكي : أنَّ يوسفَ عليه السلام شكا إلى الله تعالىٰ طولَ الحبس ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : « يا يوسفُ ؛ أنتَ حبستَ نفسَكَ حيثُ قلت : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ ، ولو قلتَ : العافيةُ أحبُّ إليَّ . . لعُوفيتَ »[2] .

وحُكي : أنَّ المؤمَّلَ بن أُمَيل الشاعرَ لمّا قال : [من البسيط]

شَفَّ المؤمَّلَ يومَ الحِيرةِ النَّظَرُ ... ليتَ المؤمَّلَ لم يُخلَقْ له بَصَرُ

فعمي . . فأتاه آتٍ في منامه ، فقال : ( هـٰذا ما طلبتَ )[3] .

وحُكي : أنَّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف ، فخرج قولُه تعالىٰ : ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾ ، فمزَّق المصحفَ ، وأنشأ يقول : [من الوافر]

أَتُوعِدُ كلَّ جبّارٍ عَنِيدِ ... فهـٰأنا ذاكَ جبّارٌ عَنِيدُ
إذا ما جئتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ ... فقلْ يا ربِّ مزَّقني الوَليدُ

فلم يلبَثْ إلا إيّاماً حتّىٰ قُتِل شرَّ قِتْلة ، وصُلِب رأسُه علىٰ قصره ، ثم علىٰ سُور بلده[4] .

نعوذ بالله من البغي ومصارعه ، ومن الشيطان ومكائده ، وهو حسبُنا ، وعليه توكَّلنا .

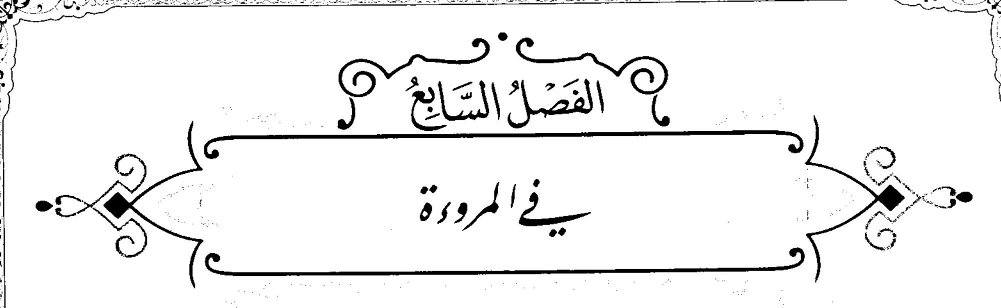
* * *

---

(١) رواه الشهاب في « مسنده » ( ٢٢٧ ، ٢٢٨ ) عن حذيفة وعليّ رضي الله عنهما ، ومن عيَّر أخاه بشيء . . وقع فيه ، قال الشاعر : (من الكامل)

احفظ لسانك لا تقول فتبتلىٰ ... إن البلاء موكلٌ بالمنطقِ

(٢) أورده في « عيون الأخبار » ( ١/ ٧٩ ) ، و« المحاسن والمساوىء » ( ص ٣٩ ) .
(٣) أورده في « معجم الشعراء » ( ص ٣٥٢ ) ، و« الأغاني » ( ٢٦/ ٨٩٧٣ ) .
(٤) أورده في « الأغاني » ( ٧/ ٢٤٨٩ ) ، والبيتان في « ديوانه » ( ص ٣٥ ) .




# الفصل السابع

## في المروءة

اعلم : أنَّ من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التي هي حِلية النفوس ، وزينة الهِمَم ، والمروءة هي مراعاةُ الأحوال أن تكون علىٰ أفضلها ؛ حتّىٰ لا يظهرَ منها قبيح عن قصد ، ولا يتوجَّهَ إليها ذمٌّ باستحقاق .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن عامَلَ النّاسَ فلم يظلِمْهُم ، وحدَّثَهُم فلم يَكذِبْهُم ، ووَعَدَهُم فلم يُخلِفْهُم . . فهو ممَّن كملَتْ مروءتُه ، وظهَرَتْ عدالتُه ، ووجبَتْ أخوّتُه »[1] .

وقال بعض البلغاء : ( من شرائط المروءة : أن تتعفَّفَ عن الحرام ، وتتظلَّفَ عن الآثام[2] ، وتُنصِفَ في الحكم ، وتكفَّ عن الظلم ، ولا تطمعَ فيما لا يُستحَقُّ ، ولا تستطيلَ علىٰ مَن لا يُسترَقُّ ، ولا تُعينَ قويّاً علىٰ ضعيف ، ولا تؤثرَ دَنيّاً علىٰ شريف ، ولا تُسِرَّ ما يُعقِبُ الوزرَ والإثم ، ولا تفعلَ ما يُقبِّحُ الذكرَ والاسم ) .

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال : ( العقلُ يأمرك بالأنفع ، والمروءةُ تأمرك بالأجمل )[3] .

ولن تجدَ الأخلاقَ علىٰ ما وصفنا من حدِّ المروءة منطبعةً ، ولا عن المُراعاة مستغنيةً ، وإنَّما المُراعاةُ هي المروءةُ ، لا ما انطبعت عليه النفسُ من فضائل الأخلاق ؛ لأنَّ غرورَ الهوىٰ ونازِعَ الشهوةِ يصرفان النفسَ ـ إن تُركت فوضىٰ ـ عن الأفضل من خلائقها ، والأجمل من طرائقها ، ولو سلمَتْ منهما ـ وبعيدٌ أن

(١) رواه الشهاب في « مسنده » ( ٥٤٣ ) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » ( ٢/ ٢٧١ ) عن سيدنا علي رضي الله عنه .
(٢) تتظلَّف : تمتنع .
(٣) أورده في « نثر الدّر » ( ١/ ٢٨٥ ) من كلام سيدنا علي رضي الله عنه .

تسلمَ ـ . . لما استكملت شرفَ الأخلاق طبعاً ، ولا استغنَت عن تهذيبها تكلُّفاً وتصنُّعاً .

قال الشاعر[١] : [من الرجز]

مَنْ لَكَ بالمَحْضِ وليسَ مَحْضُ يَخبُثُ بعضٌ ويَطيبُ بعضُ

ثم لو استكمِل الفضلُ طبعاً ـ وفي المُعوزِ أن يكون مُستكمَلاً ـ . . لكان في المُستحسَن من عادات دهره ، والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها . . ما لا يُتوصَّل إليه إلا بالمُعاناة ، ولا يُوقَف عليه إلا بالتفقُّد والمراعاة .

فثبت أنَّ مراعاة النفس علىٰ أفضل أحوالها هي المروءةُ ، وإذا كانت كذلك . . فليس ينقادُ لها مع ثِقَل كُلَفها إلاّ مَن تسهَّلت عليه المَشاقُّ ؛ رغبةً في الحمد ، وهانت عليه المَلاذُّ ؛ حذراً من الذَّمِّ ؛ ولذلك قيل : ( سيِّدُ القومِ أشقاهم )[٢] .

وقال أبو تمّام الطائيُّ[٣] : [من الكامل]

والحمدُ شَهْدٌ لا تَرىٰ مُشتارَهُ يَجنيهِ إلا مِن نَقيعِ الحَنظَلِ
غُلٌّ لحامِلِهِ ويحسَبُهُ الذي لم يُوهِ عاتقَه خفيفَ المَحمَلِ

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله[٤] : [من البسيط]

لولا المَشقّةُ سادَ الناسُ كلُّهُمُ الجُودُ يُفقِرُ والإقدامُ قَتّالُ

وقوله[٥] : [من الخفيف]

وإذا كانتِ النُّفوسُ كِباراً تعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

---

(١) البيت لأبي العتاهية من أرجوزته ذات الأمثال في « ديوانه » ( ص ٤٤٩ ) .
(٢) أورده في « المعمَّرون والوصايا » ( ص ١٣٠ ) لرياح بن ربيعة ، و« جمهرة الأمثال » ( ١/ ٤٢٥ ) ، ومعناه : أكثرهم تحملاً للمشقة ، وأكثرهم شدة ومحنة .
(٣) البيتان في « ديوانه » ( ٣/ ٤٢ ) ، والشَّهْد : العسل في شمعه ، واشتاره : اجتناه من خلاياه ، والغُل ـ بالضم ـ : الطوق الذي يُجعل في عنق المحبوس والمجنون ، ولم يُوهِ : لم يُضْعفه ويُنْحِلْه .
(٤) البيت في « ديوانه » ( ٣/ ٢٨٧ ) .
(٥) البيت في « ديوانه » ( ٣/ ٣٤٥ ) .

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان ؛ هما : علوُّ الهمّة ، وشرفُ النفس .

أمّا علوُّ الهمّة : فلأنَّه باعث على التقدُّم ، وداعٍ إلى التخصُّص ؛ أنفةً من خمول الضَّعة ، واستكباراً لمَهانة النقص ؛ ولذلكَ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله تعالىٰ يحبُّ مَعاليَ الأمورِ وأشرافَها ، ويكرَهُ سَفْسافَها »[1] .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ( لا تصغرُنَّ هممكم ؛ فإنِّي لم أَرَ أقعدَ عن المَكرُمات من صِغَر الهِمَم )[2] .

وقال بعض الحكماء : ( الهمّةُ رائد الجَدِّ ) .

وقال بعض البلغاء : ( علوُّ الهِمَم بَذْرُ النِّعَم ) .

وقال بعض العلماء : ( إذا طلب رجلان أمراً . . ظفر به أعظمُهما مروءةً )[3] .

وقال بعض الأدباء : ( مَن ترك التماسَ المعالي بسوء الرجاء . . لم ينَلْ جسيمَها )[4] .

وأمّا شرف النفس : فإنَّ به يكون قَبولُ التأديب ، واستقرارُ التقويم والتهذيب ؛ لأنَّ النفس ربَّما جمحت عن الأفضل وهي به عارفةٌ ، ونفرت من التأديب وهي له مستحسِنةٌ ؛ لأنَّها عليه غيرُ مطبوعة ، وله غيرُ ملائمة ، فتصير منه أنفرَ ، ولضدِّه الملائم آثرَ ؛ ولذلك قيل : ( ما أكثرَ من يعرف الحقَّ ولا يطيعُه !! ) .

وإذا شرُفت النفسُ . . كانت للآداب طالبةً ، وفي الفضائل راغبةً ، فإذا مازجَها . . صادف طبعاً ملائماً ، فنما واستقرَّ .

---

(١) رواه الشهاب في « مسنده » ( ١٠٧٦ ) عن سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٧٦٤٧ ) عن طلحة بن كريز الخزاعيّ رحمه الله تعالىٰ ، وسفساف الأمور : رديئها وحقيرها .

(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ٢/ ٢٨ ) ، و« محاضرات الأدباء » ( ٢/ ١٥٣ ) .

(٣) رواه في « تاريخ دمشق » ( ٢٣/ ٣٢٦ ) من قول صالح بن جناح اللَّخميّ .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ١/ ٢٧٥ ) من قول موسى بن جعفر .

فأمّا مَن مُني بعلوّ الهمّة ، وسُلب شرفَ النفس . . فقد صار عُرْضةً لأمرٍ أعوزَتْه آلتُه[1] ، وأفسدَتْه جهالتُه ، فصار كضريرٍ يروم الكِتبَةَ ، وأخرسَ يريد الخُطبةَ ، فلا يزيده الاجتهادُ إلا عجزاً ، والطلبُ إلا عَوَزاً ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ما هَلَكَ امرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ »[2] .

وقيل لبعض الحكماء : مَن أسوأُ الناسِ حالاً ؟ قال : ( مَن بعُدت همّتُه ، واتَّسعَت أمنيتُه ، وقصَّرت آلتُه ، وقلَّت مَقدِرتُه )[3] .

وقال أُفْنُونٌ التَّغلبيُّ[4] : [من الطويل]

ولا خيرَ فيما يكذِبُ المرءُ نفسَهُ ... وتَقْوالِهِ للشَّيءِ يا ليتَ ذا لِيا
لعَمْرُكَ ما يدري امرؤٌ كيفَ يتَّقي ... إذا هُوَ لم يجعَلْ لـه اللهُ واقِيا

وقال بعض الحكماء : ( تجنَّبوا المُنىٰ ؛ فإنَّها تُذهِب بهجةَ ما خُوِّلتُم ، وتستصغرون نعمةَ الله تعالىٰ عندكم )[5] .

وقيل في منثور الحكم : ( المُنىٰ من بضائع النَّوكىٰ )[6] .

فإن صادف بهمّته حظّاً نال به أملاً . . كان فيما نال كالمغتصِب ، وفيما وصل إليه كالمتغلِّب ؛ إذ ليس في الحظوظ تقديرٌ لحقٍّ ، ولا تمييزٌ لمستحِقٍّ ، وإنَّما هي كالسحاب الذي يمسك عن منابت الأشجار إلىٰ مغايص البحار ، وينزل حيثُ صادف من خبيث وطيّب ؛ فإن صادف أرضاً طيِّبةً . . نفع ، وإن صادف أرضاً خبيثةً . . ضرَّ ، كذلك الحظُّ ؛ إن صادف نفساً شريفةً . . نفع ، وكان نِعمةً عامّةً ، وإن صادف نفساً دَنيّةً . . ضرَّ ، وكان نِقمةً طامّةً .

---

(١) من مُني : من ابتلي ، وأعوزته آلته : صعبت عليه وأشكلت .
(٢) أورده في « الأوائل » ( ص ٤٩ ) ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » ( ١/ ٣٤٣ ) من قول أكثم بن صيفيّ .
(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ١/ ٢٤٧ ) ، ورواه في « الجليس الصالح » ( ٢/ ٣٦٩ ) .
(٤) أورد البيتين في « لباب الآداب » ( ص ٣٦٠ ) ، و« العقد الفريد » ( ٣/ ٢٤٧ ) .
(٥) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ١/ ٣٨٥ ) .
(٦) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ٣/ ٣٣٠ ) ، و« الإعجاز والإيجاز » ( ص ٣٧ ) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

حُكي : أنَّ موسى بن عمران عليه السلام دعا علىٰ قوم بالعذاب ، فأوحى الله سبحانه وتعالىٰ إليه : ( قد ملّكتُ سِفلَتَها علىٰ عِلْيَتِها ، فقال : يا ربِّ ؛ كنتُ أحبُّ لهم عذاباً عاجلاً ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : أوَليس هٰذا كلَّ العذاب العاجل الأليم ؟! ) .

فأمّا شرفُ النفس إذا تجرَّد من علوِّ الهمّة . . فإنَّ الفضلَ به عاطلٌ ، والقدرَ به خاملٌ ، وهو كالقوّة في الجَلْد الكَسِل ، أو الجبان الفَشِل ، يضيع قوّتَه بكسله ، وجَلَدَه بفشله .

وقد قيل في منثور الحكم : ( مَن دام كسلُه . . خاب أمَلُه )[1] .

وقال بعض الحكماء : ( نكح العجزُ التوانيَ ، فخرج بينهما الندامةُ ، ونكح الشؤمُ الكسلَ ، فخرج بينهما الحِرمانُ )[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم تعرِفْ لنفسِكَ حَقَّها هَواناً بها كانت على الناسِ أهوَنَا
فنفسَكَ أكرِمْها وإنْ ضاقَ مَسكَنٌ عليكَ لها فاطلُبْ لنفسِكَ مَسكَنَا
وإيّاكَ والسُّكْنىٰ بدارِ مَذَلّةٍ يُعَدُّ مسيئاً فيه مَن كان مُحسِنَا

وشرفُ النفس مع صغر الهمّة أَولىٰ من علوّ الهمّة مع دناءة النفس ؛ لأنَّ مَن علَتْ همّتُه مع دناءة نفسه . . كان متعدِّياً إلىٰ طلب ما لا يستحقُّه ، ومتخطِّياً إلى التماس ما لا يستوجبه .

ومَن شرُفَت نفسُه مع صغر همّته . . فهو تاركٌ لما يستحقُّه ، ومقصِّرٌ عمّا يجبُ له ، وفضلُ ما بين الأمرين ظاهرٌ وإن كان لكلٍّ واحدٍ منهما من الذمّ نصيبٌ .

---

(١) أورده في « لباب الآداب » ( ص ٦٨ ) ، و« المستطرف » ( ١/ ٩١ ) .
(٢) رواه في « روضة العقلاء » ( ٢/ ٧٩٥ ) من قول الشَّمَرْدَل ، وأورده في « نثر الدرّ » ( ٢/ ٨٧ ) من قول سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه .
(٣) أورد البيتين الأخيرين ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » ( ١٦/ ٢٠٦ ) .

وقيل لحكيم : ( ما أصعبُ شيءٍ على الإنسان ؟ قال : أن يعرفَ نفسَه ، ويكتمَ الأسرارَ ) .

**فإذا اجتمع الأمران** ، واقترن بشرف النفس علوُّ الهمّة . . **كان الفضلُ بهما ظاهراً** ، والأدبُ بهما وافراً ، ومشاقُّ الحمد بينهما مستسهَلةً ، وشروطُ المروءة منهما متهيِّئةً .

وقد قال الحُضَين بن المنذر الرَّقاشيُّ[1] : [من الكامل]

إنَّ المروءةَ ليس يُدرِكُها امرُؤٌ ... ورِثَ المَكارِمَ عن أبٍ فأضاعَها
أمَرَتْهُ نفسٌ بالدَّناءةِ والخَنا ... ونهَتْهُ عن سُبُلِ العُلا فأطاعَها
فإذا أصابَ منَ المَكارِمِ خَلّةً ... يبني الكريمُ بها المَكارِمَ باعَها

**واعلم** : أنَّ حقوقَ المروءة أكثرُ من أن تُحصىٰ ، وأخفىٰ من أن تظهرَ[2] ؛ **لأنَّ منها** ما يقوىٰ في الوهم حِسّاً ، **ومنها** ما يقتضيه شاهدُ الحال حَدْساً ، **ومنها** ما يظهر بالفعل ، ويخفىٰ بالتغافل ؛ **فلذلك أعوزَ استيفاءُ شروطها** ، إلا جُملاً يتنبَّه الفاضلُ عليها بفِطنته ، ويستدِلُّ العاقل عليها بفِطرته ، **وإن كان جميعُ ما تضمَّنه كتابنا هـٰذا هو من حقوق المروءة وشروطها** .

**وإنَّما نذكر في هـٰذا الفصل** الأشهرَ من قواعدها وأصولها ، والأظهرَ من شروطها وحقوقها محصوراً في تقسيمٍ جامعٍ .

وهي تنقسم قسمين : **أحدهما** : شروط المروءة في نفسه ، **والثاني** : شروطها في غيره .

**فأمّا شروطُها في نفسه** بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه . . **فتكون بثلاثة أمور** ؛ وهي : العفّةُ ، والنَّزاهةُ ، والصِّيانةُ .

(١) أورد الأبيات في « التذكرة الحمدونية » ( ٢/ ٦٩ ) ، و« روضة العقلاء » ( ٢/ ٨٣١ ) .
(٢) لا يتعلق بها الإحصاء لكثرتها ، ولا الإظهار لدقتها .

فأمّا العفّة . . فنوعان : أحدهما : العفّةُ عن المحارم ، والثاني : العفّةُ عن المآثم .

فأمّا العفّةُ عن المحارم . . فنوعان : أحدهما : ضبطُ الفرج عن الحرام ، والثاني : كفُّ اللسان عن الأعراض .

فأما ضبط الفرج عن الحرام : فلأنَّه مع وعيد الشرع وزاجر العقل مَعَرّةٌ فاضحة ، وهُتْكةٌ داحضة[1] .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِهِ ولَقْلَقِهِ وقَبْقَبِهِ . . فقد وُقِيَ » يريد بـ( ذبذبه ) : الفَرْجَ ، وبـ( لقلقه ) : اللسانَ ، وبـ( قبقبه ) : البطنَ[2] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « أَحَبُّ العَفافِ إلى اللهِ تعالىٰ عَفافُ الفَرْجِ والبَطْنِ » .

وحُكي : أنَّ معاويةَ سأل عَمراً عن المروءة ، فقال : ( تقوى الله تعالىٰ ، وصلةُ الرَّحِم ) .

وسأل المغيرةَ ، فقال : ( هي العفّةُ عمّا حرَّم اللهُ تعالىٰ ، والحِرفةُ فيما أحلَّ اللهُ عز وجل ) .

وسأل يزيدَ ، فقال : ( هي الصبرُ على البَلْوىٰ ، والشكرُ على النُّعْمىٰ ، والعفوُ عند القدرة ) ، فقال معاويةُ : ( أنتَ منِّي حقّاً ) .

وقال أنوشروان لابنه هرمز : ( الكاملُ المروءةِ : مَن حصَّن دِينَه ، ووصلَ رحِمَه ، وأكرمَ إخوانَه )[3] .

---

(١) معرة فاضحة : إثم ظاهر وجناح مكشوف ، وهُتكة داحضة : باطلة ، والهُتكة : خرقٌ في الستر ، وههنا كناية عن العضوين المخصوصين .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ( ٥٠٢٦ ) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفسّر القبقب فيه بالفم .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٢٠٦/٧ ) بنحوه من قول إبراهيم بن محمد الإمام .

وقال بعض الحكماء : ( مَن أحبَّ المكارمَ . اجتنبَ المحارمَ )[1] .

وقيل : ( عارُ الفضيحة يكدِّر لذّتَها )[2] .

وأنشدني بعض أهل الأدب للحسين بن عليّ عليهما السلام[3] : [من مشطور الرجز]

الموتُ خيرٌ مِن رُكُوبِ العارِ
والعارُ خيرٌ مِن دُخُولِ النّارِ
واللهُ مِن هـٰذا وهـٰذا جارِي

والداعي إلىٰ ذلك شيئان[4] : أحدهما : إرسال الطَّرْف ، والثاني : اتّباعُ الشهوة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام : « يا عليُّ ؛ لا تُتبِع النَّظرةَ النَّظرةَ ؛ فإنَّ الأُولىٰ لك ، والثّانيةَ عليكَ »[5] .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : ( لا تُتبِعِ النَّظرةَ النَّظرةَ ) تأويلان :

أحدهما : لا تتبع نظرَ عينيك نظرَ قلبك .

والثاني : لا تتبع النظرةَ الأُولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي تُوقِعُها عمداً .

وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : ( إيّاكُم والنَّظرةَ بعدَ النَّظرةِ ؛ فإنَّها تزرعُ في القلب الشهوةَ ، وكفىٰ بها لصاحبها فتنةً )[6] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » ( ٢/ ٧٥ ) ، و« التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٣١ ) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٥٥ ) .
(٣) أورد الأبيات في « البيان والتبيين » ( ٣/ ٢٧٨ ) ، و« نثر الدرّ » ( ١/ ٣٣٧ ) ، وجاري : مُجيري .
(٤) الداعي إلى الوقوع في الحرام من جهة الفرج شيئان .
(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » ( ٥٥٧٠ ) ، وأبو داوود ( ٢١٤٩ ) ، والترمذي ( ٢٧٧٧ ) .
(٦) رواه عبد الرزاق في « مصنَّفه » ( ٧٤٥٣ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٤٧/ ٤٢٩ ) .

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : ( **العيونُ مصائدُ الشيطانِ** )[١] .

وقال بعض الحكماء : ( **مَن أرسل طَرْفَه . . استدعىٰ حَتْفَه** )[٢] .

وقال بعض الشعراء[٣] : [من الطويل]

وكنتَ متىٰ أرسلْتَ طَرْفَكَ رائداً لقلبِكَ يوماً أتعبَتْكَ المَناظِرُ
رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضِه أنتَ صابِرُ

**فأمّا الشهوةُ** : فهي خادعةُ العقول ، وغارّةُ الألباب ، ومحسِّنةُ القبائح ، ومسوِّلةُ الفضائح ، وليس عطَبٌ إلا وهي له سببٌ ، وعليه ألْبٌ ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **أربعٌ مَن كُنَّ فيه . . وجَبَتْ له الجَنّةُ ، وحُفِظَ منَ الشَّياطينِ** : مَن ملَكَ نفسَهُ حينَ يرغَبُ ، وحينَ يرهَبُ ، وحينَ يشتهي ، وحينَ **يغضَبُ** »[٤] .

**وقهُرها عن هـٰذه الأحوال يكون بثلاثة أمور :**

ـ **أحدها** : **غضُّ الطَّرْف عن إثارتها ، وكفُّه عن مساعدتها** ؛ فإنَّه الرائد المحرِّك ، والقائد المهلِك .

روىٰ سعد بن سنان[٥] ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تقبَّلُوا لي بسِتٍّ . . أتقبَّلْ لكم بالجنّةِ** » قالوا : وما هي يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « إذا حدَّثَ أحدُكم . . فلا يكذِبْ ، وإذا وعَدَ . . فلا

---

(١) أورده في « نثر الدرّ » ( ١/ ٣١٧ ) بنحوه .
(٢) رواه في « الطيوريّات » ( ١٠٧٨ ) من قول ذي النون ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٣١٠ ) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » ( ٤/ ٢٢ ) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » ( ٣٢٨٤ ) لامرأة اسمها الصَّيقِل كما في « الإنصاف في مسائل الخلاف » ( ص ٦٤٥ ) .
(٤) أورده الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ( ص ٣٦٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه في « حلية الأولياء » ( ٢/ ١٤٤ ) من قول الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ .
(٥) في النسخ كلها : ( سعيد بن سنان ) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

يُخلِفْ ، وإذا اؤتُمِنَ . . فلا يَخُنْ ، **غُضُّوا أبصارَكُم ، واحفَظُوا فُرُوجَكُم ، وكُفُّوا أيديَكُم** »[1] .

ـ **والثاني : ترغيبُها في الحلال عِوَضاً ، وإقناعُها بالمباح بدَلاً** ؛ فإنَّ الله تعالىٰ ما حرَّم شيئاً إلا وأغنىٰ عنه بمباحٍ من جنسه ؛ لما علمه من نوازع الشهوة ، وتركيب الفطرة ؛ ليكون ذلك عوناً علىٰ طاعته ، وحاجزاً عن مخالفته .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ( **ما أمرَ اللهُ تعالىٰ بشيءٍ إلا وأعانَ عليه ، ولا نهىٰ عن شيءٍ إلا وأغنىٰ عنه** )[2] .

ـ **والثالث : إشعارُ النفس بتقوى الله تعالىٰ في أوامره ، واتِّقاؤه في زواجره** ، وإلزامُها ما ألزم من طاعته ، وتحذيرُها ما حذَّر من معصيته ، **وإعلامُها** : أنَّه لا يخفىٰ عليه ضميرٌ ، ولا يعزُبُ عنه قِطْمِيرٌ ، وأنَّه يجازي المحسنَ ، ويكافىء المسيءَ ، بذلك نزلت كتبه ، وبلَّغت رسله .

روى ابن مسعود رضي الله عنه : ( أنَّ آخرَ ما نزلَ من القرآن : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ )[3] .

**وآخرُ ما نزل من التوراة** : ( إذا لم تستَحْيِ . . فاصنَعْ ما شئتَ )[4] .

**وآخرُ ما نزل من الإنجيل** : (شرُّ الناس مَن لا يبالي أن يراه الناس مُسيئاً)[5] .

**وآخرُ ما نزل من الزَّبُور** : ( مَن يزرَعْ خيراً . . يحصُدْ غِبْطةً )[6] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٤/ ٣٥٩ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٤٠٤٦ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٢٩/ ٣٦٧ ) ، وتقبَّلُوا : تكفَّلُوا .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٨ ) دون نسبة .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » ( ٣/ ٣/ ١٤٨ ) ، والبخاري ( ٤٥٤٤ ) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » ( ٤٧٩٩ ) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٥٣/ ١٢٠ ) عن سيدنا أبي مسعود البدريّ رضي الله عنه .

(٥) رواه الإمام أحمد في « الزهد » ( ٢٧٥ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٦٦٠٢ ) من قول لقمان الحكيم .

(٦) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » ( ١/ ٥٥ ) ، وابن هشام في « السيرة النبوية » ( ١/ ١٩٦ ) ، وغبطة : حال كونه مسرة ، وحسن حال .

فإذا أشعرها ما وصفت . . انقادت إلى الكفِّ ، وأذعنت بالاتّقاء ، فسلم دينُه ، وظهرت مروءتُه ، فهٰذا شرط .

وأمّا كفُّ اللسان عن الأعراض : فلأنه مَلاذُّ السفهاء ، وانتقامُ الغَوغاء ، وهو مستسهَل الكُلَف ، إن لم يقهر نفسَه عنه برادعٍ كافٍّ ، وزاجرٍ صادٍّ . . تلبَّط بمَعارِّه ، وتخبَّط بمَضارِّه ، وظنَّ أنَّه لتجافي الناس عنه حِمىً يُتَّقىٰ ، ورتبةٌ تُرتقىٰ ، فهلك وأهلك ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ألا إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم حَرامٌ عليكُمْ »(١) فجمع بين الدَّم والعِرض ؛ لما فيه من إيغار الصدور ، وإبداء الشُّرور ، وإظهار البَذاء ، واكتساب الأعداء ، ولا يبقىٰ مع هٰذه الأمور وزنٌ لمرموق ، ولا مروءةٌ لملحوظ ، ثم هو بها موتورٌ وموزور ، ولأجلها مهجورٌ ومزجور .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « شَرُّ الناسِ : مَن أكرَمَهُ النّاسُ ؛ اتِّقاءَ لسانِهِ »(٢) .

وقال بعض الحكماء : ( إنَّما يهلك الناسُ بفُضول الكلام ، وفُضول المال )(٣) .

وما قدح في الأعراض من الكلام . . فنوعان :

أحدهما : ما قدح في عِرض صاحبه ، ولم يتجاوزه إلىٰ غيره ؛ وذلك شيئان : الكذبُ ، وفُحشُ القول .

والثاني : ما تجاوزه إلىٰ غيره ؛ وذلك أربعة أشياء : الغِيبةُ ، والنَّميمةُ ، والسِّعايةُ ، والسَّبُّ بقذفٍ أو شتمٍ .

---

(١) رواه البخاري ( ٦٧ ) ، ومسلم ( ١٦٧٩ ) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ( ٦٠٣٢ ) ، ومسلم ( ٢٥٩١ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » ( ١٠٣ ) ، و« البيان والتبيين » ( ١/ ١٩٢ ) من قول إبراهيم النَّخَعيّ رحمه الله تعالىٰ .